

## حول إعجاز القرآن

## ٢

## وضوح المعاني واثلافيها

بقلم السباعي السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

على انتشار الغرابة في كلام كثير من الفحول ، اختار القرآن كتابته ظاهرة المعنى واضحة المراد ، فووقت مفهومة حتى لغير الخاصة من الدهماء . ولقد كانت اللفظة ترد في ثناياه غير بارزة المعنى في ذاتها للسواد فيشع عليها أسلوبه شعاعا يكشف عن معناها ، ويصوب اليها نوراً يبين من غرضها ومرماها ، فاذا هي كلفق الإصباح . وكثيرا ما كان يعدد الأسلوب من معاني اللفظة الواحدة تعديداً لا يخرج على كثرته عن معناها الأصيل . خذ لذلك مثلاً كلمة « الهدى » ، فقد جاءت في قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » ، بمعنى البيان . وفي قوله : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، بمعنى الإيمان . وفي قوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ، بمعنى القرآن . وفي قوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » ، من الدعاء . وفي قوله : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، من الإلهام . وفي قوله : « إن الله لا يهدي كيد الخائئين » ، من الإصلاح . إلى غير ذلك من معانيها التي قاربت العشرين . ومثلها في ذلك كلمات كثيرة كالصلاة والرحمة ، والسوء والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء وغيرها مما ورد متنوع المعاني باختلاف السياق على مثل تلك الكثرة أو يزيد .

وكما كان الأسلوب يسبغ على اللفظة الواحدة معاني تختلف باختلاف السياق ، كان يقبل من الكلمة الواحدة في الموضوع الواحد جملة معان يحتملها

التفسير دون أن تخرج في أحدها عن صالح التفسير . من ذلك قوله تعالى :  
 « انفروا خفافاً وثقالاً ، فقد احتمل تفسيره شبانا وشيئا أو أغنياء وفقراء  
 أو أعزبا ومتأهلين أو نشاطا وكسالى أو أصحاء ومرضى . وكل ذلك سائغ  
 مقبول ، ومنه قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ،  
 فهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، فقد قيل : الظالم :  
 المضيع الواجبات المنتهك الحرمات . والمقتصد : فاعل الواجبات ، تارك  
 الحرمات . والسابق : الذى يفضل المقتصد فيتقرب بالحسنات . وقيل : بل  
 الظالم : مؤخر الصلاة إلى نهاية وقتها ، والمقتصد مصلها خلاله ، والسابق مؤديها  
 أولا . وقيل : بل الظالم : مانع الزكاة ، والمقتصد : مؤتيها وحدها ، والسابق : الزائد  
 عليها بالصدقة . وقد تختلف القراءة في كلمة ففسر على كل قراءة تفسيراً صالحاً .  
 ومن أمثلة هذا قوله تعالى : « لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، فقد قرئ بتشديد  
 سكرت بمعنى سدت ، وقرئ بتخفيفها على معنى أخذت ؛ ومنه أيضا قوله تعالى :  
 « سرايلهم من قطران ، فقد فسر على أن القطران كلمة واحدة لما تُهَنُّأ به الإبل  
 الجربى ، وعلى أنه كلمتان : إحداهما القطر ، أى النحاس ؛ والثانية آن ، بمعنى ذائب  
 من شدة الحرارة ، ولكن سهلت همزتها .

وعلى كثرة ما عرا التعقيد بنوعيه كلام الفصحاء والبلغاء فخفيت معانيه خفاء  
 كبيرا لا اضطراب التراكيب بتعقيد الألفاظ وخفاء أكبر منه لسوء التصوير ،  
 لعدم استقامة التفكير ؛ حتى أصبح تلسها عسيرا على الجهابذة المتبصرين ، كما  
 هي شواهد ذلك في كتب البلاغة حيث مواطن النقد والمحامكات - على كثرة  
 ذلك قد سلم القرآن من نوعي التعقيد على طوله المديد ، وعلى كثرة ما عالج من  
 معان جاوزت في عددها عدد الآيات البالغ ستة الآلاف ويزيد ، فكان في كل  
 غرض قصد إليه مستقيم التركيب ، عذب الأسلوب ، واضح المعنى ، صادق  
 التفكير . وهذا حكم يصدق على جميع القرآن من حيث سلامة التراكيب دون  
 استثناء ، وعلى معانيه من حيث الوضوح إلا ما أتى متشابهها لحكمة كما سيأتى .  
 ولقد راعى القرآن في معانيه الجزئية فوق ما تقدم من صحة ووضوح

وجود الروابط والصلات بين كل طائفة يجمع بينها معنى عام، حتى أصبح التلاوم شديداً، والانسجام بينا؛ وصارت أغلب سُورَه تتصل خواتيمها بقواتيمها اتصالاً تناسباً، أو اتحاداً في حسن ابتداء، وجمال انتهاء، ضامةً بينها كلاً متعاشق الأجزاء، يرمى إلى غرض واحد، أو إلى أغراض فيها - على تعددها - تناسب واتلاف، وهذا شيء واضح للعيان.

فمن الربط بين الفواتيح والخواتيم ما نراه في سورة الحشر من تسبيح، وفي سورة الممتحنة من نهى المؤمنين عن موالاة الكفار، وهما من السور القصار؛ وما نراه في سورة النحل من ذكر القرآن، وفي سورة الأحزاب من ذكر الكافرين والمنافقين والمشركين، والسورتان متوسطتان؛ ثم ما نراه في سورة البقرة عن الإيمان، وفي سورة آل عمران عن الكتاب وأهل الكتاب، وهما من السور الطوال.

وعليك أيها القارئ الرجوع إلى هذه الآيات؛ لترى فيها وجه ما نقول، والرجوع إلى غيرها متبعاً أوجه الاتحاد. أما التماس الربط بين الفواتيح والخواتيم عن طريق التناسب، فهو يتناول معظم القرآن، ولذا آثرنا التمثيل للاتحاد دونه، فازجج إليه فإنه سهل المنال.

وقد بلغ القرآن في التناسب، بين ما تضمنت كل سورة من آيات، درجة الإعجاز، إذ جاءت كل آية تابعة ما قبلها، متبوعة بما بعدها، على اختلاف هذه التبعية على وجوه:

فإنها ما يظهر فيه الارتباط بين الآية اللاحقة والآية السابقة من حيث تعلق الكلم بعضها ببعض، لعدم تمام السابق من غير اللاحق، أو لتمامه بدونه، ولكن مع وقوع اللاحق من السابق موقع التأكيد أو البديل أو البيان أو الاعتراض، وهذا كثير جداً لا يحتاج الوقوف على التناسب فيه إلى تفكير.

ومنهما ما يكاد يظهر فيه كل من السابق واللاحق بمظهر المستقل، ولكن قليلاً من التدبر يكشف عن جهة جامعة بينهما من أنواع العلاقات؛ ولهذا كان من عادة

القرآن ذكر الرحمة بعد العذاب ، وذكر الرعدة بعد الرهبة ، وذكر الوعد بعد الوعيد ، أو التوحيد والتنزيه بعد الأحكام ؛ ليكون ذلك باعنا على العمل ، أو مينا عظم أمر النهي ، كما كان من عادته أن يخرج من شيء إلى شيء المناسبة تيسر بهذا الخروج ؛ ثم تارة يعود إلى ما كان فيه ، فيسمى ما خرج إليه حينئذ استطرادا ؛ وتارة لا يعود فيسمى انتقالا .

مثال الأول : خروجه في قصة إبراهيم في سورة الشعراء - وكان الحديث قبلها في قصة موسى - إلى وصف المعاد عقب قوله على لسان إبراهيم : « وَلَا تُخْزِي فِي يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إلى آخر ما ذكر في وصف اليوم ؛ فإنه عاد بعده إلى قصص الأنبياء بالدخول في قصة نوح ، وهذا هو الاستطراد .

ومثال الثاني : خروجه في سورة « ص » - حيث كان حديث الأنبياء - إلى ذكر المتقين بقوله : « هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ ، فإنه أنهى السورة دون أن يعود إلى ذكر الأنبياء ، وهذا هو الخروج .

وقد تخفى المناسبة في الظاهر في بعض الآيات ، فتحتاج في تلبسها إلى فضل علم بأسباب التنزيل ، ومن أمثلة ذلك - وهي قليلة - قوله تعالى : « لَا تُحْرَكْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَعْجَلَ بِهِ ؛ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْتَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » . فإن هذه الآية وردت في « سورة القيامة » بين أوصاف اليوم الآخر ، الذي خلصت له السورة ، ولكن السبب في وجودها يرجع إلى أسرار التنزيل ؛ فقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ما أنزل من أول السورة إلى قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » ، بادر إلى حفظه متعجلا فحرك لسانه ؛ ولما كان في هذا انشغال له عما هو نازل من سائر السورة ، لفته المولى سبحانه بهذه الآية ، ثم عاد إلى تكلمة ما بدأ به . وفي الآية مناسبات أخر ذكرها المفسرون ، ولكنني فضلت عليها ما ذكرت ، كما فضلت التمثيل بهذه الآية من هذا النوع على غيرها ، لأنها أبعدها في ظاهرها تعلقا بما حو اليها .

وكما تخفى المناسبة في الظاهر ، وهي موجودة ، فتكون الآية محل كلام في تلبس

المناسبات ، كذلك قد تظهر بعض الآيات بمظهر الاختلاف ولا اختلاف . من هذا ما ذكره سبحانه عما خلق منه آدم ، فقد جعله التراب والطين والحما والصلصال في كثير من الآيات ، فأشعر ذلك بالمخالفة في ظاهره ، ولكن لا خلاف ؛ لأن مرجع هذه الأشياء كلها إلى جوهر واحد تشكلت منه هو التراب . ومنه قوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » مع قوله : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » . ووجه عدم المخالفة أن الآية الأولى للأعمال والثانية للعقائد . وكذا قوله : « فَإِنْ خِفْتُمْ الْإِنْسَانَ فَوَاحِدَةً » مع قوله : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » . فإن الأولى في توفية الحقوق ، والثانية في ميل القلوب . ومن أمثلة هذا النوع في الموضوع الواحد قوله تعالى : « قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي سَخَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ » إلى قوله : « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » . فإن ظاهرها يقتضى أن خلق الأرض والسماء استغرق ثمانية أيام ، وهذا يناقى المجمع عليه والمصرح به في كثير من الآيات من أنها ستة ، ولكن المتدبر هنا يرى أن اليومين الأولين الخاصين بخلق الأرض داخلان في الأربعة بعدهما ، إذ كان جعل الرواسي وتقدير الأقوات في يومين أتمهما أربعة ؛ ثم كان خلق السموات في يومين ثالثين ، أكملهما سالتين . وهناك آيات أخر من هذا النوع لا يخفى التوجيه فيها على ذوى البصائر والعقول ؛ أما الاختلاف بمعنى التناقض فلا وجود له البتة في القرآن .

تلك كلمة أسلفناها عن معاني القرآن في صدقها ووضوحها وتلاؤمها وعدم اختلافها ، وإنه لمن الضروري - وقد امتد بنا الحديث هذا الامتداد - أن نشفعها كما وعدنا بأخرى موجزة عن مهمات القرآن ومتشابهاته ، لما لها من المساس بالموضوع . فأما المهمات ، فنقصد بها الآيات ذوات الحاجة إلى إيضاح ، وهي نوعان : نوع فسر القرآن في موضع غير موضعه ، كقوله تعالى : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » . فإنه بين هؤلاء في آية أخرى هي قوله : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » ، وكقوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا » . فقد فسره بقوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

بالأشياء ، ، وكقوله : « أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمُ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ » ، فإنه  
مفسر بقوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ » . . . الآية .

ونوع ترك تفسيره لأسباب ظاهرة ، منها : اشتهاره نحو : « اسْكُنْ أَنْتَ  
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » ، فعروف أنها حواء ؛ ومنها : التستر عليه نحو : « وَمِنْ النَّاسِ  
مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ الَّذِي  
الْحِصَامُ » . فقد نزلت في الأخنس بن شريق ، ولم يذكر الله اسمه تستراً عليه ،  
لما علم من أنه سيُسلم ويحسن إسلامه ؛ ومنها : ألا يكون في ذكره فائدة ، كما في قوله :  
« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ » ، إذ الغرض مطلق التمثيل ؛ ومنها : سوجه مساق  
العموم . وإن كان في الأصل خاصاً ، كما في قوله عن ضمرة بن جندب : « وَمَنْ  
يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى  
اللَّهِ » ؛ ومنها : تعظيمه بذكر الوصف دون الاسم ، كما في قوله : « وَالَّذِي جَاءَ  
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » ، يقصد النبي وأبا بكر ؛ إلى غير ذلك من الأسباب .

وأما المتشابهات فهي ما استأثر الله تعالى بعلمها ؛ إذ ليس في قدرة العقول  
الوصول إلى حقائقها ، ولعله لأشياء منها في القرآن إلا الحروف المبدوء بها بعض  
السور ، والحكمة الحققة في وجودها لاتعدو اختبار العباد في درجات الإيمان ؛  
فإن من لم ترسخ عقائدهم يقفون عندها وقفة الزنيج والإلحاد ، كما ذكر الله تعالى  
ذلك صريحاً بقوله : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ  
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ  
ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ  
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » . إذ الصدق أن الوقف  
في هذه الآية على لفظ الجلالة ، والكلام بعده ابتداء . أما القول بالعطف الذي  
يجعل الراسخين في العلم من العالمين بالتأويل فغير وجيه ؛ لأن من قالوا به —

فضلاً على تركهم جملة ، يقولون ، قلقه نائية — لم يصلوا إلى مقنع في التأويل .  
وهذا طرف مما يقولون في هذه الحروف : فبعضهم يجعلها مأخوذة  
حرفاً حرفاً من مبادئ أسماء الله تعالى ، أو من مبادئ جمل ينسبها سبحانه إلى

نفسه ، على أن ذلك اختزال ؛ وبعضهم يجعلها من أسماء الله سبحانه وتعالى أو أسماء للسور ؛ وبعضهم يقول إنها مركبة على حساب جمل الأعداد لأشياء موقوتة في علم الله . وكل هذه أقوال لاغناء فيها كما ترى ، إذ لم تنته إلى معنى معروف .

وأخيراً هناك رأى لا بأس من إيراده ، هو قول من يقولون : إنها حروف ذكرت سرداً ، إعلماً للعرب ومن بعدهم ، بتركيب القرآن - الذى أعجزهم - من هذه الحروف المعروفة لهم ؛ ولذلك كثر ذكر الكتاب بعد هذه المبادئ ، ثم يذكر في سبب المخالفة بينها شيئاً يهدى إليه الاستقراء ، هو دوران الحروف التى بدئت بها سورة ما فى كلماتها بنسبة ليست لغيرها فى تلك السورة ، ولا لها نفسها فى سورة لم تبدأ بها . على أن أصحاب هذا الرأى قد ظفروا عن طريق الاستقراء أيضاً بأشياء غاية فى العجب ، إذ وجدوا مثلاً أن السور التى بدئت بالحروف ثمان وعشرون ، بعدد حروف الهجاء ، وأن الحروف التى دارت فيها نصف تلك الحروف ، وأنها مشتملة على هذه المناصفة فى تقاسيم كثيرة للحروف معروفة عند القراء . ففيها نصف الحروف المهموسة ونصف المجهورة ، وفيها نصف الحروف الشديدة ونصف الرخوة ، وفيها نصف الحروف الحلقية ونصف الحروف المطبقة ، وهكذا .

إلى هذا الحد وصلت البحوث فى المتشابهات دون جدوى ، وعندى أن الوصول إلى معانيها ينافى الحكمة فى وجودها ، إذ رأى فى تفسير آياتها هو ما أثبت آنفاً من أن علمها الحق عند الله وحده ، علام الغيوب .

السباعى ييوسى

